رواية

ألوان من النساء

جيهان الحلواني




ألوان من النساء

الحلوانى، جيهان.

الوان من النساء/ تأليف جيهان الحلوانى. ـــ

القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩

١١٢ ص ؛ سم.

تدمك ٣ ٧٢٣ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص العربية.

(أ) ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٨٣٢/ ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 723 - 3

ديوى٨١٣

ألوان من النساء

رواية

جيهان الحلوانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

الإشراف الفنى :

صبرى عبدالواحد

كانت أمى بالنسبة لى بابا .. وماما .

وكنت أشاكسها وأناديها ..

١

مـابـا

أمى دللتنى كثيرًا . ذلك الدلال الذى لا يفسد ولكنه يبنى النفوس. أمى كانت تنقلب إلى أب له قدرة على الحزم، إذا أخطأت أخطاء المراهقات المندفعات.

ومع ذلك فأنا أشعر بأننى حصلت على كامل حقوقى من حنانها . اعتدت أن آكل من يدها . أن تجهز لى أوراقى، أن أحكى لها أسرارى، ما حدث معى وما أفكر فيه..

أمى كانت صديقتى الحميمة. فقد جمعت أمى بين أدوار ثلاثة.. الأم والأب والصديقة.

إفطارك يا جيجى..

وتحدثنى.. كيف يكون الإفطار مهمًا.. مهما كان.. حتى أكون قادرة على مواجهة يومى. "كنت قد عملت سكرتيرة لشركة مقاولات كبرى". تعد لى ملابسى. تختار لى الألوان المناسبة. تظل تنتظر نحوى وأنا أرتدى ملابسى، حتى أنها كانت تلمع لى الحذاء بنفسها.

عفوًا يا أمى اتركى لى ذلك..

لكنها تكون مشغولة بأن تجعلنى فى أبهى صورة. تصحبنى حتى عتبة باب المسكن، ترقبنى وأنا أنزل السلالم، وتلاحقنى بدعواتها.. ويظل صوتها الساحر ملازمًا لى فى مشاويرى حتى أعود فتحتضنى وتقبل خدودى، وكأنى كنت على سفر.

كنت ابنتها الوحيدة، فعثرت فى حنانها واهتمامها على الأخوات والأقارب والجيران وحتى الأصدقاء..

كانت أمى تشبعنى بعواطفها. وكنت أحاول من ناحيتى أن أكون لها كما ترغب.

يا لعطاء الأمهات غير المحدود.. ذلك العطاء المتدفق الذى لا ينتظر الثمن.

كان كل أمل أمى أن أتزوج. ولعل موافقتى السريعة على الزوج ممن اختارته لى لم يكن إلا لأن أرضيها أولا، فلم أدقق فى ذلك الشاب الذى كانت ملامحه غير محددة فى أعماقى. أحاول أن أجعل صورته هى نفس الصورة التى تمنيتها.. ذلك من أجل أمى الطيبة، فلم أراجع مزايا الرجل. كنت واثقة. ما دام هو من اختيار أمى. سيكون الأحسن، وسيكون الأفضل لى.

لابد وأنها اختارت الأوفى والأحسن.. ولم يكن فى نظرى ما يعيب ذلك الزوج. إلا أنه «ابن أمه». وهو عيب لم يكن مسئولا عنه، فأنا أيضًا ابنة أمى.

وكانت الأمهات قد تحادثن فى شأننا. وكل منهن اختارت بذوقها. أمى رأتنى مناسبة له. وأمه رأته مناسبًا لى. ونحن نطيع أمهاتنا الطيبات، لم يكن يهمنى أن أمه ذات شخصية متسلطة، وأنها امرأة شديدة الجهل والغباء. تتمسك بأمور تافهة.. أضطر مع أمى لمسايرتها. وأمى لم تكشف لى، بأنها كانت تعانى من تسلط أمه ومطالبها "القراقوشية" وأنها كانت بجانب تسلطها متعجرفة. كانت ترى ابنها أمير الأمراء. وترانى مجرد جارية فى حريمه..

مع أن أحوالنا المالية والمعيشية كانت أفضل من أحوالهم كثيرًا.. فقد تعمدت أن تقلب «الدستور» غير المكتوب والذى تسير الزيجات على شروطه، جعلت ما على الزوج تتكفل به الزوجة، بجانب ما نص الدستور عليه من واجبات الزوجة نحو زوجها..!

وكانت أمى تحاول أن تلبى كافة طلبات أمه، وعندما حاولت أن أجعل مسألة الزواج هى قضيتنا معًا، فقد فاجأنى بقوله:

- ماما اتفقت على كل شىء مع أمك.

قلت له:

- لكنها اتفاقيات ملغمطة بالإذعان وأنت تعرف ما على الزوج من واجبات.. وما..

قاطعنى:

- لا تكلمينى أنا .. كلمى أمى.

ولم أكن أجرؤ على أن أواجه تلك المرأة الغاضبة دومًا والتى ترى فى معارضتها - قلة أدب. لا يمكن أن يتوافق مع امرأة. تفضل ابنها وقبل الاقتران بها..

وكنت أود أن أستحث الصديقة فى أمى. لأبثها مخاوفى، وأن تترك الأمهات لنا شيئًا من الاختيار، لكنى تلقيت الضربة على أم رأسى.. عندما عدت إلى البيت وأنا على عزم بوقف حالات التدهور، فإذا بالبيت فارغ من أمى.

الجيران استقبلونى بالتهدئة، وبكلمات تقال فى الوقت العصيب...

«تحملى يا جيجى. تمالكى نفسك، أمك أغمى عليها. ونقلناها إلى المستشفى...»

رحت أسأل عن عنوان المستشفى.. فأعطانى أحدهم قصاصة من الورق بها العنوان. والعنبر وقسم مرضى القلب!

* * *

٢

الزفاف

قالت أمى وهى منهكة:

زواج البنت سترة. وافقى يا جيجى.

وتدخل جارنا عم عبد الفتاح حتى لا تنهك أمى أكثر وأنا أقدم لها بعض الاعتراضات التى لخصتها فى جملة واحدة. «دا بتاع أمه يا أمى»

ابتسمت أمى وقالت:

- «وأنت بتاعة أمك»

عندما تأملت المسألة وجدت بقعة من الضوء تتلألأ بعيدًا. وكأنها المنفذ عند عبور النفق المظلم.

* * *

تزوجت من عصام..

وكان الشىء الوحيد الذى لا يستشير فيه أمه "كيف ينام معى، ومتى، وماذا سيفعل. وبدأت أنمى فيه شيئًا من الخصوصية.

عصام لا يعيبه إلا أنه لا يفكر إلا بعقل أمه، فهو شاب وسيم وعلى شىء من الثراء، ومستقر فى وظيفته وبدأ يتودد لى، ويحيطنى بشىء من الرعاية.. ولعل أمه شعرت بأنه يتباعد عنها، فقد راحت تثير له المشاكل، تمرض ليقلق. وإذا ما لازم بيتها كانت هى التى تطعمه، وهى التى تؤانسه.

وكنت أتمسك بحقى فى البقاء معه. وكانت تضيق بنا. وتطلب منا مغادرة بيتها حتى تستقبل بعض الراحة.

وكانت أمى قد برئت من مرضها. وراحت تمد فى حبال الصبر مع أم عصام التى لا تريدنى أن أزور أمى، أو تزورنى.

وانفجرت أمى فى وجه أم عصام. ورأيت كيف تكون أمى مرعبة لحماتى التى تتفنن فى إثارة الزوابع.. ومع ذلك فقد حملت وبدأ الحمل يجعلنى أنقطع أيامًا عن العمل، وأشعر بالتوعك. الأمر الذى جعل أمى تلازمنى لتقضى لى شئون بيتى..

وكان مرض أمى يستلزم أخذ دواء فى مواعيده. وكانت إذا استثارتها حماتى تشعر بضيق فى التنفس ويزرق لونها. كنت أقول لها:

ـ ضغطك يا أمى. قلبك يا أمى لا تتمادى فى الغضب.

قالت:

ـ ماذا أفعل فى حماتك. إنها تتعمد إثارتى

قلت لها:

ـ أنت تعلمين عن حماتى كل شىء. لا تثارى. قالت:

ـ أنا لن أستريح إلا إذا احتضنت فى صدرى ابنك أو بنتك.

وهدأت. وجلسنا نتسامر كأصدقاء، فإذا بها وهى تستعرض ألبوم صور الزفاف تتوقف طويلا أمام صورة ظهر فيها عم عبد الفتاح جارنا الأرمل الذى زوج ابنته، وسافرت عنه بعيداً، وكان يسارع ليلبى حاجة الجيران لخدماته.

قلت لها:

ما بك يا حاجة. أراك تتأملين صورة عم عبد الفتاح وهو فى حلته الإفرنجية.

رأيت «صديقتى» تتلعثم قليلا ثم تبوح بمكنون صدرها.

- أصل عمك عبد الفتاح طلب منى الزواج...

- وماذا كان ردك يا جميل ؟

- أمهلته فترة للتفكير.

- أما وقد فكرتى، فماذا سيكون ردك للعاشق؟

أدارت وجهها بعيداً وهى تقول:

بعد أن تركت المنزل يا جيجى.. أنا أعيش فى فراغ قاتل.. لم أجد أمامى إلا أن أوافق، ولكنى اشترطت عليه ألا يكون هناك زفاف.. نكتفى بعقد القِرَان فى مسجد سيدى جابر.. وخلاص..

احتضنتها. وقلت لها فى أذنها:

ـ نفسى أشوفك فى ثوب الزفاف، أبى مات وأنا طفلة، وأنت جميلة. مؤكد أنت ستكونين عروسة نموذجية، وسأجعل تليفزيون الإسكندرية يصور زفافك، بل سأجعله الموسم فى برنامج «أفراح إسكندرية».

أمى كانت تحاول إسكاتى بإشارات من يديها وتعبيرات خجلة على وجهها. تعبيرات وسط بين الألم والاندهاش..

ولعدة دقائق حاسمة، لم أكن أدرى بأن أمى تعانى ـ ربما من فرحتها ـ أزمة قلبية جديدة ..

* * *

٣

المستشفى

حمدت الله بأن الأزمة التى عانت منها أمى قد أمكن السيطرة عليها للمرة الثانية. وقد تلقت علاجًا فعالا فى المستشفى الخاص الذى أرهقنى ماديًا إلى حد ما.

كنت أزورها يوميًا، مع أنى حامل وفى الشهور الأخيرة، فأجد عم عبد الفتاح قد سبقنى ويقوم بالعناية بها

والجلوس على مقعد بالقرب منها، لو كانت غافية. أحتضنها وأقبلها عند دخولى، وأفعل نفس الشىء حتى عند انصرافى.

والحديث بيننا صار قليلا.. ونظراتها نحوى كانت محملة بأحاديث لا تنتهى. تملكنى شعور بأن أمى راحلة.

وكنت أحاول أن أتخلص من ذلك الإحساس البشع. وأن يتحقق لها ما كنا نتحدث بشأنه، حتى أنى كنت أنظر إلى عم عبد الفتاح فأراه زوجًا طيبًا لأمى، سيجعل نهايتها سعيدة.

وكان مثار حزنى أنها إذا نظرت نحوى، رأيت فى نظراتها تعبير الوداع، مع أنها كانت تحاول أن تبتسم فى وجهى لتشعرنى بأن النهاية بعيدة. ولم يزل فى العمر بقية وأنها ستحمل طفلى بين يديها كما تمنت ورغبت.

كانت تهمس بشىء لم أفهمه، لكن عم عبدالفتاح أمال رأسه عند فمها وترجمه لى.

- «إنها ترى بأنك حامل وفى الشهور الأخيرة وتطلب منك أن تستريحى فى بيتك ولا تكلفى نفسك بالحضور يوميًا. إنها قلقة عليك يا جيجى».

وادعيت بأننى لا أشعر بأى إرهاق من مشوارى لرؤيتها. ولكن عم عبد الفتاح طلب منى ألا أحضر فى الغد، وأنه بعد الغد، سوف يصحبنى فى سيارته ذهابًا وعودة..

ورأيتها تهز لى رأسها بأن أوافق فوافقت. واعتذرت بالنيابة عن عصام لمشغولياته فى عمله، فهزت رأسها وحاولت أن تبدو طبيعية من خلف قناع الأكسجين الشفاف.

مضى يوم وجاء لى عم عبد الفتاح بسيارته الفولكس الصغيرة، كنت قد أعددت أطعمة خفيفة وجافة. وكان هو قد وضع فى المقعد الخلفى كيسًا من البرتقال وآخر به تفاحًا. عندما نظرت إليه، قال ضاحكًا:

أصلنا ناس بلدى يا جيجى. بنشوف بأن الفاكهة أفيد للمريض عن الورود والأزهار.

وصلنا. صعدنا إلى حجرتها بالطابق الثانى العلوى كان قلبى مخطوفًا على غير العادة. مثقلا بالألم لا أعرف مصدرها.

وكنت أحاول أن أبدو طبيعية، ومتجاوبة مع فكاهات وتعليقات عم عبد الفتاح. وصلنا إلى حجرتها، فلم نجد بها أحداً. كان سريرها منزوع الملاءات البيضاء.

تحققت من أنها نفس الحجرة، واتجهت إلى الحكيمة المناوبة أسالها:

«أين أمى»؟

فإذا بها تمسك بكامل ذراعى بكلتا يديها وتقربنى منها فى نصف حضن، وتهمس فى أذنى:

- «البقاء لله تجلدى. أنت حامل لا تنفعلى ذلك خطر على جنينك، كلنا سنموت. لقد اختارها الله فى الصباح الباكر».

وجاء الطبيب وأخبرنا بالتفاصيل. وعودة الأزمة القلبية حادة مع هبوط فى الدورة الدموية. وانفجرت فى البكاء.

وكان عم عبد الفتاح قد تساند وجلس على أحد المقاعد وقد أخفى وجهه نحو الجدار وراح جسمه يهتز.. كانت لم تزل أكياس الفاكهة بيديه. وعندما قام ليذهب مع الطبيب إلى حيث «حفظت» وجدت كيسى الفاكهة على المقعد الذى كان قد انهار عليه جالساً..

ولم يكن أحد فى العنبر إلا الحكيمة التى وقفت خلفى.. تقول كلمات تخفف بها المصاب الأليم.

* * *

٤

الفجر

أنجبت محمدًا.. كان ينام بالنهار ويسهر الليل بطوله، قد يغفو بعض الوقت، ولكنه لا يسترسل فى النوم بالساعات كما يفعل بالنهار.

اعتدت على السهر.. هكذا حال الأم مع بكريها وكنت إذا غفى قليلا.. أصنع شيئًا مما يعطله من مشاغل النهار..

وبينما كان الفجر يمهد له بقراءة آيات الذكر الحكيم .. كنت أنا ما بين النوم واليقظة وشاهدت أمى تدخل الغرفة.. ومن بين ذهولى، كانت قد قصدت ابنى، حملته فى أحضانها وقبلت خدوده ومسدت شعره.. ثم دارت به فى الغرفة عدة دورات هى تهزه وتنهنهه. ثم وضعته فى فرشه..

لم تعرنى التفاتًا . انعقد لسانى. كنت أريد أن تحادثنى. لكننى أعرف بأنها ماتت، المفاجأة جعلتنى أتجمد وأكتفى بدورى كمشاهدة.

كانت تمشى خفيفة. وكانت تقول لابنى أشياء مما تقوله الجدات فى آذان حفيدهن. ربما كلمات تدليل. ليس لها معنى إلا أنها محملة بالعاطفة الجياشة.

كان حديثها هامسًا بصوتها المميز.. ولم أميز منه إلا اسم ابنى. وجدت ابنى الصغير يكركر بالضحك..

وعندما لم تسارع وتغادر الغرفة ذهبت إلى ذلك المقعد المجاور لباب الشرفة وجلست هناك، بقيت جالسة حتى انطلق الأذان. وتجمع أكثر من مكبر صوت. كل منهما يقول شيئًا مختلفًا.. لعل ذلك الضجيج أزعجها، فقد قامت وخرجت إلى الشرفة وإذا ما بدأت تباشير النهار تدخل إلى غرفتى.

رأيت ابنى نائمًا إذا ما نظرت إلى وجهه رآيته يبتسم.. بل إنه يصدر أصوات ضحكات خافتة.. واندهشت، فأنا أشاهد ما يحدث ولم أكن نائمة . كنت مستيقظة لا أريد أن

يغلبنى النعاس حتى أصلى الفجر.. إذا نمت سوف أعيد الوضوء ومضى يوم.. لم أذكر فيه مشاهدتى لأمى لأحد فإذا بها تأتى مرة أخرى.. وتفعل نفس ما فعلته قبل ذلك، تدور بابنى فى الغرفة تداعبه وتنهنهه ثم تعيده إلى فراشه وتجلس قليلا على مقعدها بالقرب من باب الشرفة ومع تباشير الفجر تذهب وجدت نفسى أحكى ما حدث لعصام .. قال بعد أن استمع إلىَّ جيدًا: أنت تحلمين بأمك فتمثلينها قلت: ـ ولكنى لا أكون نائمة . فقد شاهدتها مرتين أكاد أشعر بأنفاسها فى الغرفة حتى بعد رحيلها. وعندما قابلت عم عبد الفتاح حكيت له ما حدث معى. وأننى عندما ذكرت ذلك لزوجى انقطع حضورها .. قال عم عبد الفتاح ـ أصدقك يا ابنتى فقد شاهدتها أنا أيضًا وكنت بين اليقظة والمنام.. وراح يحدثنى عن الأموات الذين يكون حضورهم شديدا بعد الرحيل.. وقال إنهم يشعرون بنا. إنهم يحيطوننا برعايتهم. وحتى تحدث الصلة الدائمة. عليك بقراءة القرآن الكريم رحمة ونور على أرواحهم..

* * *

٥

الذاكرة

كلما اشتقت لأمى تذكرت وصايا عم عبد الفتاح والغريب أن حماتى المتسلطة انقلبت إلى سيدة طيبة تعمل على راحتى، فقد ادعت هى الأخرى بأن أمى زارتها فى المنام وأوصتها بى خيرًا.. وأبلغتها بأنها سعيدة بحفيدها محمد وأنها حملته بين يديها مرتين !! ولأنى أحفظ آيات الذكر الحكيم بسبب الطريقة العتيقة التى اتبعت معى فى حفظ آيات القرآن بالضرب وأنا طفلة. فقد نسيت كل ما حفظته لأنه كان مقرونًا بالألم.. لذلك كنت أستعين بمصحف شريف مغلف بغلاف من الجلد الطبيعى. أجعله بداخل حقيبتى أستعين به على ذاكرتى اللعينة. التى سريعًا ما تناست المصاب وأفسحت المجال لكل التأتآت والثأثآت التى التى يتقول بها طفلى الرائع!

الحب والصبر

كان يقول لى:

ـ أنت حبى الأوحد، أنا لا أستطيع الحياة بدونك

وكان يقول لى:

ـ الحب شىء والزواج شىء آخر. يكفى أن الحب يربط بينى وبينك برباط لا ينفصم.

وكان ذلك يصيبنى بالرعب.

* * *

كان قد أمضى خمسة أعوام فى فرنسا. ثم عاد إلى الإسكندرية ليدير أعمال والده الذى توفاه الله. وكانت

صداقتنا قد بدأت تتشابك وتتوطد. ومع أن الفتاة فى المدن لم تعد تهلع بأن العام الثلاثين قد يحل بعمرها. لكن كل فتاة كانت تسعى بأن يأتى هذا العام (المؤلم) وهى ببيت الزوجية، قد تهتم بجانب اهتمامها بزوجها، بذلك الوافد الجديد، الذى يجعل لحياتها معنى ودوراً جديداً..

كنت أتمناه زوجاً.. وكان يقول دائماً:

- أنت حبى يا جيلان.. فلماذا تريدين قتل ذلك الحب الرائع بقيود الزواج !

. *

وكان يقول:

- مازلت أشعر عندما أراك وكأنى آراك لأول مرة فقشعريرة الحب لم تتجمد فى عروقى بعد.

وكان يقول:

- فلنكتف بالحب، نجنبه ملل الزواج. بالحب أنا وأنت نملك حريتنا. لذلك يتعمق دائماً. إنهم هناك يفضلون الحب الطليق عن الحب الحبيس! كنت ألوذ بالصمت.

لكن أوراق شجرة الصبر كانت تتساقط طيلة تلك السنوات الماضيات.

فروع شجرتى بدت عارية.

خريفية.

وكنت قد أدمنت كلماته.

وقال:

- انظرى إلى الحياة على أنها لحظة استحلاب للمتعة

وكنت أريد أن أقول له:

- كيف أوضح لك أسباب قلقى؟ كيف أجعلك تتفهم عاداتنا؟ أنت تعيش فى الإسكندرية بعادات باريس

وذلك يجعل الأيام التى تمر وتراها فى صالحك، مخصومة من رصيدى.

يعود ويقول:

- قلب الزوجة يصدأ بسرعة. أما قلب الحبيبة فهو كالذهب لا يصدأ أبداً.

أرد فى استحياء:

ـ لماذا لا يكون قلب الزوجة من ذهب ؟

يرد:

ـ العادة تطفئ البريق.

كيف أقول له بأننى عندما أنظر فى وجه طفل بين يدى أبويه، تسقط جميع حججه وكلماته عن الحب. تسقط تحت أقدامى. أنا لم أزل شرقية. كيف أقول له "تزوجنى مادمت تحبنى".

يا لكلماتك التى تطير بى فى سماء الرغبات. ولكنى كنت واعية بأن أغلق الطرق.. كل الطرق التى تؤدى بى إلى فراش بدون عقد.

وكنت أقول:

ـ أعدك بأن الزواج لا يقتل ذلك الحب العظيم الذى بيننا وعندما ضيقت عليه الخناق، فوجئت به يقول:

ـ اختارى من الرجال زوجاً.. أنا خلقت للحب فقط

قلت:

ـ لا أعرف من الرجال إلا أنت.

قال:

أنت تملكين حريتك، لماذا تسعين لوضع الأصفاد فى معصمك ؟

قلت:

- إنها المؤسسة التى تنظم المجتمعات وتحفظ حقوق الأبناء، الحب لا يقاوم الأطماع ولا يصد الأنانية.

قال:

ما الذى حدث حتى تتشبثى بتلك الفكرة الخبيثة؟

وكنت كلما ناقشت معه ذلك الأمر شعرت بأن علاقتنا باتت فى مهب الريح، كرهت فرنسا. ولكنى أدركت بأنهم هناك يتزوجون ويؤسسون عائلاتهم بأواصر قوية. وأنه اختار الجانب الأسهل.

وكنت من أجل ذلك الحب أتساهل فى حقوقى. أكاد أن أسايره، أغافل الحراس الذين بثثتهم فى طريق الفراش، وأمضى معه لكنى فى آخر لحظة كنت أفيق . وأدعوه للزواج، فيدعونى للعشق ثم انفجر فى وجهى: يمكن أن أخونك. لا أريد أن أخونك واتهمنى بالرجعية، وأشار إلى علاقة سارتر بسيمون دى بوفوار.

انفجرت فى وجهه:

ـ لا أنت سارتر.. ولا أنا سيمون دى بوفوار.

* * *

حبيبى المتأثر بالحياة الفرنسية غير العلنية. كان ينتهز نداء الأمومة بداخلى ويضغط. وكنت أقول فى نفسى. ماذا بالفعل لو أنه تزوجنى وأرضانى بالوثيقة. ثم قام بتطليقى فيما بعد؟ إنها وثيقة يمكن للرجل أن يحصل عليها بسهولة.. وأن العاصم الدائم هوالحب..

صاحبى مع أنه رجل أعمال إلا أن لديه روح الفنان، فهو يكتب أحياناً ويرسم أحياناً. ويستمتع بالموسيقى دائمًا.

أيكون ذلك الفنان هو الذى يهرب من مسئوليات الأولاد - العائلة ؟

قال لى:

ـ أنا وأنت شجرتان متجاورتان فى عناق دائم

قلت له:

ـ ولكن لا ثمار للشجرتين

قال:

ـ الحب..

قلت:

ـ أنت لا تدرى بأن الحب بين الرجل والمرأة له وجوه أخرى. فهو لكى يدوم قد يبدأ بالرغبة. ثم ينتقل إلى الواجبات وتلك العلاقة السماوية بين الآباء والأبناء وتصبح المرأة أو يصبح الرجل. مجرد حامل لحقيبة الذكريات. وإذا ما عاد يتحدث عن الحب مرة أخرى.

كان عامى الواحد والثلاثون يملينى الرد:

ـ هل ستتزوج وتؤسس أسرة؟

صمت.. فقلت:

ـ إذًا هو الفراق، فهناك من يسعى لتأسيس أسرة ويريدنى شريكة له.. ومع أنك رجل أعمال. فأنت لا تعرف الحديث بلغة الشركاء.. باى.. باى.

تجمد مكانه وانصرفت أنا.. كان من يرغبنى يمنينى بتأسيس أسرة ووضع ضمانات للمستقبل، حتى أطمئن،

كنت أرجئ الرد عليه. ذهبت وفى نيتى أن أجيبه بالموافقة.
لكن «حبيبى» لحق بى.. عاد يحدثنى عن الحب الذى أجبره
على التنازل.

كسر العادة

استيقظت من نومى متمهلة، على غير عجلة، فاليوم هوالجمعة ـ يوم عطلتى الأسبوعية .

مارست طقس حياتى المعتاد.. لكنى فكرت بأن أكسّر العادة. أخرج من حالة التكرار والملل. عمل البيت لا ينتهى وعملى فى شغلى لا ينتهى. إنهما صورة مكررة.

قلت فى نفسى «لماذا لا أمضى فترة الصباح على شاطئ البحر». البحر قريب من منزلى، لذلك دائمًا ما أتناساه، وقد حل الربيع. نعم أحسست بأننى فى حاجة للتجديد وكثيراً ما كنت أفكر بأن أكسر عاداتى لكننى كنت أندمج فى شغل البيت وأؤجل ذلك إلى يوم آخر.. والأيام تترى. لذلك قررت بأن أُبادر وأُغادر البيت وآخذ طريقى إلى شاطئ البحر

وجدت نفسى أفعلها. أُغادر المسكن وآخذ طريقى إلى هناك.

عندما واجهته، واستقبلنى هواؤه البارد، كنت كمن يلتقى بصديق تناساه، لأنه فى متناول يده، مضيت حتى حد الموج . متلهفة بأن يمنحنى غفرانه، غمرنى شعور بالراحة وأنا أمشى حافية على رماله المبتلة . تملكتنى رغبة عارمة فى السباحة..

لكن ذلك كان مستحيلاً على امرأة فى الخامسة والثلاثين فى شاطئ خال من الرواد، ولكنه لم يخلُ وممن يختلسون النظر، فثمة أفراد قلائل يتناثرون على أفريز الشاطئ..

ولم أجد أمامى إلا أن أكبت رغبتى المستحيلة وأستمتع بالنظر وصوت الموج.. وخطواتى التى تترك آثارها على ما قام البحر بتسويته وتشذيبه.

كنت قد نزعت الحذاء وشمرت رجلى بنطالى، غمرتنى رعشة لذيذة عندما داعبت برودة الماء قدمى ... تابعت

السير وأنا أجيل النظر فى الماء… رأيت محارة كبيرة وسط بعض الصخور… تعجبت من وجودها فى هذا المكان… اقتربت منها، فوجدت صدفتيها شبه مغلقتين ومن الفرجة بينهما دفع الكائن الذى بداخلها مجسين دقيقين يعبث بهما فى الماء… أعجبتنى المحارة… فانحنيت والتقطها… سحب الكائن مجسيه للداخل وأغلق صدفتيه تمامًا مدافعًا عن نفسه… ضحكت… تأملتها فى يدى بإعجاب… كانت محارة بديعة الزخارف… منسقة الأقواس… ساكنة فى ضعف ودعة… توفر لساكنها الرخو قدرًا من الحماية والأمان…

أما إذا هاجمه متوحش قاسٍ.. فهذه هى النهاية، لا مفر منها وهذه سنة الحياة !!… كانت بمجملها نموذجاً مثالياً للجمال والضعف… أعدتها مكانها ووقفت أرقبها مدة… اطمأنَّ الكائن لزوال الخطر ففتح صدفتيه ومد مجسيه يعبث بهما فى الماء مرة أخرى… تبسمت.. الآن فليتنفس الضعفاء.

تركت المحارة وواصلت رحلتى… مضى بعض الوقت وأنا أزداد لذة وانشراحاً… تعبت… قررت الرجوع من نفس

الطريق ابتعدت قليلا وفى موضع المحارة رأيت صبياً يمسك شيئاً بين يديه ويأتى بحركات عنيفة... دوى صوت بداخلى.. إنه يفعلها، إنه يحطم المحارة، يقتل الكائن... أسرعت الخطى... وصلت إلى الصبى الذى بدت عليه علامات الرضا... نظرت إلى يديه فرأيت الصدفتين منفصلتين والكائن على الأرض يتلوى فى ألم... قبضة هائلة عصرت قلبى وكادت أن تسحقه... غلى الدم فى عروقى... صحت فى الصبى:

ـ ماذا فعلت ؟!!

ـ لا شىء، لقد حطمت المحارة.. قتلت الكائن.

ـ يا لقسوتك.

ـ كنت تلهو.. تحطم لتلهو؟. من أين لك كل هذه القسوة وأنت طفل ؟

نظر إلىَّ الطفل فى خوف. لابد وأن وجهى كان بشعاً ليدب الرعب على وجهه فقد ألقى بالصدفتين أرضاً وأسلم ساقيه للريح.. كان يجرى ويصيح.

ـ البقية فى حياتك أيتها المرأة التى تشفق على المحار.

هى هى

تلفت حوله، فأحس بتميزه عن الآخرين، شعر بالقوة تدب فى كيانه، تسرى فى عروقه، نظر فرآها حسناء فاتنة. رأى الناس يلهثون وراءها وهى تتباعد عنهم فى دلال. فكر. هو الوحيد الذى يستحقها، لا أحد غيره..

غمزت له بإحدى عينيها. أشارت إليه.

يا لجرأتها كان عليه أن يستجيب. أن يتبعها. لكنها حافظت على مسافة محددة بينهما. إذا ما اقترب شبراً.. تباعدت شبراً.. إذا توقف وأدبر شبراً.. قطعت نفس الشبر إليه ثم توقفت على مسافة اللقاء.

وإذا ما تحول إلى أن يجرى ليلحق بها كانت تجرى أمامه بنفس السرعة.. إذا ما تعب وتوقف تناديه «لماذا توقفت؟»

هل أعتبر ذلك هزيمة لك ؟ هيا اقترب منى. الناس من حولك ينظرون إليك ويحسدونك لأنى اخترتك أنت دونهم..

والصراع بينهما قائم. لا يعرف متى يقطف ثمرته وحتى عندما توقفت لتضييق المسافة بينهما ويتم اللقاء كان التعب الشديد قد حل به، وأخذ يتنفس بصعوبة سقط على الأرض، حاول النهوض، فلم يستطع، وجد نفسه يستسلم للإرهاق، فقد كان المجهود الذى بذله أكبر من طاقته على مواصلة المشوار نحوها..

شعر بمرارة شديدة. حفزته المرارة. نهض بصعوبة جرى نحوها متعباً. متطوحاً.. لكنه كان يحاول منهكًا بصعوبة وأمكن له أن يسابق الجميع ويقترب منها.. شعر بالسعادة، لكنه شعر بتعب شديد ومرارة أشد، فكر فى التوقف عن الجرى. مدت له يدها. نفض الفكرة عن رأسه. أمسك يدها. لم تتوقف. سحبته وراءها، اشتد الجرى. عاد ووقع على الأرض. لابد أنه تعثر فى شىء، لكن ما كان يغريه أنها تمهلت وأمسكت بيده لأول مرة، كما أنها كانت تنظر إليه مشجعة!

عاد وأحس بسعادة غامرة، على الرغم من الألم، كان يبتسم.. اقتربت منه بوجهها، وكأنها تتهيأ لأن تمنحه قبلة.. فجأة تبدلت ملامحها. رأى أنيابها البارزة من جانبى شفتيها. «هل ذلك من تأثير مشاهدته لأفلام مصاصى الدماء. يالتلك السينما التى تسلى المشاهدين بكثير من الخوف والرعب» أمسكته بكلتا يديها تشبثت به. شلته. صرخ غرست أنيابها فى رقبته. امتصت دماءه فى وحشية شعر بالموت يأتى زاحفاً. حاول الفرار.. لا مفر من الاستسلام. أن يستمتع بها لحظات. ما الحياة إلا لحظة من المتعة والألم..

* * *

وهو فى أحضانها، لم يكن أحد من الناس يعلم بأنها تمتص دماءه.. كان ما يشاهدونه مشهداً عاطفياً مؤثراً. رأى الناس يحسدونه على أنه فاز بها. على أنه يحتضن جسمها اللين وتتنفس فى أعطافه بأنفاسها العطرة.

لكنه كان يحاول أن يحذرهم. رفع يده، إذ لم يقو على الكلام. فصاح من يشاهده محيياً.. وكأنه يرد على إشارتهم

بالفوز.. انهارت قواه تماماً.. فازداد من التلويح.. وازداد الناس من الهتاف للحب واللذة.

وإذا ما فرغت منه. تركته يتهاوى وراحت تغمز بعينها لآخر بأن يتبعها.. تجرى ويجرى خلفها.. تستهلك قواه قبل أن تمتص دماءه.. إنها لا تجعله ييأس. تلك طبيعتها، إذا تمهل متعباً.. منحته أملاً فى أن يلحق بها ويفوز.

نجدة المحترف

وسط الزحام الشديد والأجساد المتلاصقة. وقف «المحترف» يرقب القوم بعينين كعينى الذئب ملؤها الخبث والدهاء. كانت محطة الباص مزدحمة فالوقت هوالذروة.

أقبلت الحافلة مكتظة بالركاب، فما إن استقرت على المحطة حتى هاج القوم الذى مضهم الانتظار وتزاحموا على أبوابها كأن بهم مسًا من جنون فمن كانوا بداخل السيارة يطلبون من السائق أن ينطلق غير عابئ بمن هم فى انتظارها بالمحطة. ومن هم خارجها يتصايحون بأن من هم بداخل الباص عليهم مزيد من الالتصاق حتى يفسحوا مجالاً لهم ليعودوا إلى منازلهم أو يذهبوا إلى أعمالهم.

وبين هذا الزحام الذى ينشده «المحترف» شحذ قواه للنزال. لابد وأن يصعد إلى الحافلة مهما كان الثمن، ففى ذلك الازدحام مبتغاه. واليوم من أوائل الشهر، فالجيوب عامرة بالمرتبات التى لم تتبدد بعد.

أمكن للمحترف أن يشق طريقه من بين الزحام على الباب ويصعد الباص وقد التصق بسيدة متوسطة العمر، علقت حقيبتها فى كتفها. فالحقيبة لن تكون جزءاً من جسمها، ويمكن أن يفتحها، ويعبث بها، دون أن تشعر به السيدة التى لابد وأنها غادرت عملها مرهقة.

وإذا ما انطلق الباص مخلفاً نصف المنتظرين على المحطة، كان الزحام بداخل الحافلة على أشده بدأ «المحترف» فى العمل الذى يتقنه. أمكن له أن يفتح سوستة الحقيبة ويدخل يده بداخلها، أصابعه قادرة على الرؤية والفرز والتمييز، طال فرزه بداخلها، فكل ما يصادفه من التوافه. أين كيس النقود. الحلى.. أى شىء ثمين.. لكنه لم يعثر على المطلوب. كما أن السيدة التى كان البعض يتعامل مع جسمها.. كانت ضائقة وكثيرة الحركة حتى لا تمكن أحداً من الاستغراق فى ملذته.

ولعل حركة المرأة غير المتوقعة جعلت يد «النشال» تتعلق بالحقيبة فتشعر المرأة بأن أشياء أخرى تسلب منها.

فقد سارعت وانتفضت. وإذا ما شاهدت حقيبتها مفتوحة أطلقت صرخة مدوية على أثرها توقف كل شئ. حتى المحترف بهت وفغر فاه وحدق فى السيدة بعينين زائغتين ملؤهما الرعب والهلع. رعب أفصح عن حقيقته للسيدة، ومن يجاورها، حتى ذلك الذى التصق بعجيزتها.

من أين لتلك السيدة ذلك الصوت الراعد الضائق أم أن مضاعفات الصوت تأتى للمحترف من أوزاره ؟!

عاد الزمن يتحرك. ومعظم من بداخل الحافلة صاحوا فى وجهه اللص. «النشال. أمسكوه» .لم يكن الزحام قد ترك له فرصة للنجاة وقد تم تحديده، حالت الكتلة البشرية دون فراغ حاول أن يدفع عن نفسه التهمة متصنعاً الدهشة. لكن من بين الزحام ظهر ذلك العملاق، الذى بادر ووجه له لكمة فى وجهه. كأنها قنبلة تفجرت فى عينيه يرى المحترف أطيافاً وألواناً. كانت تلك اللكمة إيذاناً بالبداية، فتحت اللكمة أبواب الجحيم لتتلقفه الأيدى للصفعات والضربات

من أناس ضاقوا بحياتهم وبمن يسرقونهم ليل نهار. علت الأصوات وبات الضجيج يصم الآذان، أخذ المحترف فى الصراخ والعويل مدافعاً عن نفسه. لكن الأيدى كانت تطول جسمه دون رحمة. صفعاً وركلاً وكأن كل راكب له ثأر قديم عنده. فهذا يلكمه فى بطنه وآخر يلكمه فى صدره أو ظهره. فقد أخفى وجهه وترك لهم جسمه لينهشوه.

والناس ينتقمون فى جسمه يعانون منه.. فليس كل وقت يقع بين أيديهم لص ممن ينشلونهم. ولم يتوقف الضرب إلا بوقوف الباص..

وصعود الشرطى إلى الحافلة ليتسلمه ويخرجه من أتون المعركة. الشرطى أتى وفرق الجميع وتسلمه.. بينما بعض الركلات كانت تطوله ممن لم يساعدهم الزحام فى أن يطولوه..

الشرطى ألزم الجميع بالهدوء، سحبه وهو يئن ويتوجع وكان على اللص أن يقبل يد الشرطى بأن يعجل وينزل به من الحافلة الغاضبة. بينما البعض يتوعده ويسبه. بحث اللص عن حافظة نقوده فلم يعثر عليها.. راح يصيح..

«محفظتى يا حرامية»!

دموع مستعصية

أمسك بأناملى ونظر فى عمق عينى وهمس فى أذنى:

ـ آسف يا حبيبتى، لابد أن نمتلك الشجاعة ونعترف بأنها كانت مجرد نزوة.

قال ذلك ولم ينسحب. لم يتعلل بشىء وينصرف. بل إنه وقف كأى صفيق متحدياً.

ثمة لحظات تجعل شريط حياتك يمر فى ذهنك سريعاً شريط حياتى كان يحتل فيه معظم السنوات الأخيرة.

تساءلت شاردة النفس:

ـ لقد كنت حبى الأول الذى وهبتك فيه أرق أحاسيسى ماذا حدث حتى تصدمنى بتلك الصدمة؟

ما الذى جعلك تنقلب ذلك الانقلاب الذى ليس له مقدمات؟

إلى هذه الدرجة كنت مخادعاً..؟!

* * *

بعد وفاة أمى، لم يصمد أبى إلا ثلاثة أعوام بعدها راح يقدم المبررات ليقترن بامرأة طوته تحت جناحها.

وبت أشعر بأنى حمل ثقيل. وأن وجودى فى بيته بات مؤلمًا لى. وكنت لم أزل طالبة، أحلم بيوم أتخرج فيه وأتزوج وأغادر بيت أبى مغادرة شبه طبيعية وكان إرثى من أمى يعيننى على التصدى لأى تجاهل. بل إنه يعوضنى دائماً بمن يهتم بى.

مشاعرى خبأتها فى أعماقى. كنت كالبلهاء، أبتسم فى وجه الجميع. من يكن لى الود، ومن يظهر لى الكراهية.

ولكن لا أحد كان يعلم مدى تلهفى على أن أطوى صفحتهم وأتناساهم. كان لقلبى باب مفتوح ينتظر ذلك الطارق الذى سيأتى فى وقته. وكنت قد تنازلت عن أشياء كثيرة تخص ذلك الطارق يمكن أن أعوضها له.

وجاء «هو».. لم يتمهل كثيراً أمام الباب. عاونته على أن يدخل ويستقر فى أعماقى.. أضفيت عليه ما لم يكن يملكه، وجعلت منه الفارس الذى كنت أنتظره بشغف.

لكن ما بال فارس هذه الأيام مهموم بالأشياء عن الحب. السيارة، الشقة المجهزة، الوظيفة، ممتلكات الزوجة واشتراطه بأن يدير ممتلكاتى بتوكيل عام، وتكون يده العليا على دخل الزوجة المتحرك والثابت..

كنت أرى بأن ذلك طبيعى جداً. فالأحبة شركاء على العموم ولا يمكن فصل ذلك عن تلك. والواقعية جعلت الرومانسية والأحلام.. يتبددان أمام اللحظة الراهنة.. وأنا التى عشت حالة يتم وحزن كانت الأحلام جزءًا من حياتى غير العادية..

ومع ذلك فقد أسمعنى ما كنت أتمناه من كلمات فانفتح له وجدانى وقدمت له كنزى الذى خبأته فى طيات القلب.

ورأيتنى معه نبعاً لا ينضب، زهرة لا تذبل، عطاء لا يغيب غير أنى استيقظت فجأة لأجدنى أقبض على الهواء لا يشغلنى نحوه إلا التساؤل والحيرة..

كأن حصوله على كنزى لم يقنعه بالاكتفاء. إنه يريد الحصول على مالى، أن أوقع له أوراقاً على بياض. ولما كنت قد احتميت بإرثى ونميته كان لى ذلك نعم الحماية فى مجتمع لا يعرف غير الماديات. فقد رأيت فى عينيه الإحباط. كلما حاول أوقفته على عتبة الموافقة والرفض معاً.. وقد ربطت بين أشياء وأشياء بطريقة ذكية، تكشف الخبيث من الطيب.

انفعل وغضب. كنت أعطيه مالاً بقدر ما يقدم من تعليلات ولا أسلمه مقودى..

هل كان ذلك هو سبب انقلابه المفاجئ..

* * *

تماسكت وسألته:

- لماذا تحاول الهروب ؟

لم تدهشنى صراحته، ولا تعجبت لتقلبه، ولكن ما هزنى حقاً.. هو كيف انخدعت فيه إلى هذه الدرجة.

هل تكذب المشاعر على صاحبها ؟ أم أنها الظروف التى تبدل الأحوال ؟

ظللت ناظرة إليه، أتامل الوجه الذى كان أحب الوجوه لنفسى. الوجه الذى كنت أمسح كل جزء منه بشفتى.

* * *

«آسف يا حبيبتى، لابد وأن نمتلك الشجاعة ونعترف بأنها كانت مجرد نزوة»..

كان لابد وأن يمشى من أمامى مطرقاً. يا للصفاقة إنه يقف ويتحدانى. يريد أن أستجيب وأسلمه أموالى وقد سلمته نفسى وجدت نفسى أنا التى تمضى فى صمت، لم أكن نادمة. حتى كلمة الوداع وجدته لا يستحقها.. كنت أمشى وقد ودعت عدة سنوات من عمرى أنفقتها معه. جعلت الدموع تتجمد فى عينى.

دموع مستعصية عن النزول.

بقايا مهلهلة *

صحوت من نومى مبكرة، لا شىء حولى غير الصمت. الوحشة تسكن كل أرجاء بيتى، صعب على الإنسان أن يعيش الاغتراب وهوفى وطنه، محاطٌ بعدد كبير من الأقارب وعدد لا بأس به من الأصدقاء!

ورغم ذلك لا أجد بداخلى إلا الخواء، وحولى ذلك الصمت الذى يضاعف من ثقل الخواء بداخلى.. خواء يتكاثف كما يتكاثف الجليد فيصيبنى بتلك البرودة التى تحط فى شراييني وتدفعنى إلى أن أقوم وأدور حول نفسى.. ثم أعود لأحط على طرف سريرى.. لكن كان لابد من أن أقوم..

(*) القصة الفائزة بمسابقة نادى القصة بالقاهرة عام ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ .

قمت ووقفت أمام مرآتى أسترجع أيام العمر لأجده فيها. لم يزل هناك. ماذا يفعل ذلك الشخص الذى كان..

* * *

فتحت دولابى أستخرج منه ملابسى، أعدها. أنظفها لكى تكون جاهزة للارتداء فالشتاء على الأبواب، المقدمات وصلت فى شكل رخات خجلة.

أخرجت الملابس البيضاء. جيب قصير وجاكيت أبيض وبيلوز بالأسود. ذلك كان يتفق ومزاجه..

ياه.. ما زالت أتذكر أول مرة خرجت فيها معه. كنت أرتدى تلك الملابس. أخذنى بين ذراعيه واقتربت أنفاسه من وجهى، أسكرتنى وطبع قبلته الأولى على خدى..

فلم أعِ شيئاً من تلك الآراء السياسية التى كان يدفع بها. كان معارضاً. وكانت له تصوراته فى الإصلاح الاقتصادى والسياسى. ولعله تحدث عن فترة قضاها فى الحبس جراء تلك... الآراء الجريئة.. ولعله شاهد تسليمى له فحاول أن يقبلنى فى شفتى ولكنى صدرت له خدى الآخر.. وأنا أدخل فى حالة من انعدام الوزن..

تلك الحالة التى أشعر فيها آن بإمكانى أن أحرك ذراعى فأطير فى الفضاء.

صحبنى من الكازينو إلى الخارج. وكانت سيارتى هناك. فتح لى بابها بعيداً عن المقود فاتجهت إلى الباب الآخر. إذ إنه يقود السيارة بنفس الجنون وذلك كان يرعبنى أيضاً.

قال لى وهو بجانبى: يا أميرتى، خلت أن الناس ينظرون إلى. يحسدوننى على ما بين يدى من سعادة وأنا معك، ماذا لو ذهبنا إلى بيتى؟!

لكنى أقنعته بأن نذهب إلى المطعم الذى تعشينا فيه المرة السابقة، وادعيت بأننى أشعر بالجوع. وكنت أكذب فالحب يجعلنى أشعر بالشبع الدائم.

ها هو فستانى الأسود. فستان سواريه قصير مفتوح الصدر. أضع فوقه شالاً. ارتديته له فى عيد ميلاده، ولى معه صورة التقطها المصور فى غفلة فكانت طبيعية كبرتها وبروزتها وجعلتها على الكومودينو المجاور للسرير حتى إذا صحوت من النوم شاهدته.

لم تعد الصورة مكانها.

يومها قال لى: كم أتمنى الآن أن أمتلك طائرة «هوالذى لا يملك سيارة» ـ كان على لسانى أن أقول له "أحلامك كبيرة كأحلامك السياسية. أحلامك تعبر على المعتاد لتصل إلى المستحيل.

هو الذى يدعى بأنه لا يتذكر عيد ميلاده.

وأنا أول من أهتم بذلك اليوم الذى يتناساه..

كان يحلم بالطائرة حتى لا تشاهدنى عيون غير عيونه. كلماته كانت تشجعنى دائماً على الطيران.

وجدت قلبى يخفق من الفرحة. وكانت لى أحلامى. تنصب على صورة معينة. صورة لى وأنا بملابس بيضاء وهو بجانبى. أخرجت علبة بها هديتى له. ساعة سويسرية غالية.

فأخرج من جيبه علبة صغيرة بها خاتم ذهب به فص أحمر. واعتنى بى عناية خاصة أثناء العشاء. كان يطعمنى من طبقه. وأنا أطعمه من طبقى. ورغبت فى أن أرقص معه. نبهنى بأنه لا يجيد الرقص.

قلت له:

«ليتك تجيد الرقص كما تجيد الكلام فى السياسة» ومع ذلك فقد احتضنى ورحنا نهتز على أنغام الموسيقى.

صحونا فلم نجد حولنا إلا الفرقة الموسيقية. ومع ذلك واصلنا الرقص المحتضن لعدة دقائق.

وفى مناسبة أخرى. ارتديت له فستانى الأرجوانى، يومها أهدانى سلسلة ذهبية رقيقة تنتهى بمربع مكتوب عليه "ما شاء الله" سرنى ذلك منه كثيراً. ففى ظنى أن أمثاله وهمومهم اجتماعية بحتة، فى حاجة إلى مساندة من «الله» حتى يتحقق لهم المستحيل الذى ينادون به.

وتكررت المناسبات. وتكرر ارتدائى الملابس، يبدى إعجابه بها فأضيف عليها لمسة جمالية وأرتديها مرة أخرى.

وفى كل مرة.

أظن بأنى أقترب من الصورة التى فى ذهنى، صورتى وأنا بذلك الثوب الأبيض الفضفاض الذى تتمناه كل امرأة لتبدأ حياة جديدة مستقرة.

ارتديت الجيب السوداء مع الجاكيت الهافان. وقال قولته المكررة. «إن ملابسى الجميلة هى جميلة لأنى ارتديتها».

ضحكت وقلت:

- لبِّس البوصة تبقى عروسة.

وصحبنى إلى محل الصائغ ليشترى لى خاتم الخطوبة. كان قلبى يرتجف من السعادة. هأنا ذا أقترب من تحقيق حلمى. السعادة بداخلى. خيل لى أنها تكفى العالم.

ولكن إذا ما تأملتها وجدتها موشاة بالحزن.

خاتم الخطوبة ظل فى جيبه. وراح يحدثنى عن مشاريعه التى يزمع تحقيقها. وتلك العقبة التى تقف فى طريقه. فهناك قطعة أرض تساوى نصف مليون جنيه، يتعذر عليه بيعها. فى الوقت الحالى. ويرغب أن أقرضه «مائتى ألف جنيه»!

* * *

وفى رحلتنا معاً على «شط النخيل»

قضينا يوماً رائعاً، ولكنه كان ينفرد بى ويسألنى:

«ماذا عن ردى الإيجابى»

لم أكن قد حددت ذلك الرد. هذا المبلغ يمثل كل ما أتساند عليه فى معيشتى بجانب أجر الوظيفة الذى لا يسد كامل احتياجاتى اليومية.

وحالة الحب كانت فى صالحه.

أرجأت الرد إلى وقت آخر..

كان لابد أن أفيق من أحلامى وأستقصى عنه..

وما وصلنى.. كان بالنسبة لى صدمة. فقد كرر ذلك مع أرملة ثرية.. وهى لم تزل تطارده بأحكام قضائية.

* * *

كان فستانى الأخير. هوالفستان الأصفر. يومها تعطلت السيارة فى الطريق وتركتها وركبنا تاكسياً. فتركنى أدفع أجرة السائق. واتهمنى بأننى أعطل له صفقة رائجة بكل المقاييس.

هل كان فستانى الأصفر آخر الفساتين التى خرجت بها معه.. ربما.

فقد انشغلت بتلك المسافة التى وقعت بيننا. جعلت كلماته تأتى إلىَّ من واد سحيق.

* * *

تناثرت ملابسى على السرير. وضلف الدولاب مفتوحة كالكهف البدائى. قررت أن ألملم أحزانى وأكفنها بتلك الملابس التى أعجبته. هل أحمد الله أن الحقيقة وصلتنى قبل أن أتورط ؟

* * *

وأنا أعيد ترتيب ملابسى، أنظر إليها فأجدها كلها أصبحت قديمة. تحتاج إلى تعديلات طبقاً للموضة التى تتغير كثيراً.

المرآة صريحة. تظهر تلك الشعرة البيضاء التى تتسلل إلى شعرى الأسود الغزير. وحالة الشك تكتنفنى، «لعلهم أعداؤه الذين يطاردونه ولا يفسحون له فرصة للحب الحقيقى»..

نزعت نفسى من حالة التردى فى علاقته. ورأيت أن الأصباغ قد تكون الأفضل لشعرى لتخصم من عمرى تلك

الأيام التى تهلهلت مع.. نعم رأيت أيامى معه. مشحونة فى تلك الملابس التى احتضننى وأنا فيها.

ما عدت أطيقها..

تلك البقايا المهلهلة التى يجب أن أتخلص منها.. لأبدأ من جديد.

الألبوم

بدون أن يقصد ابنى الصغير جذب ألبوم الصور، الذى تراكمت فوقه أشياء أخرى وعلا صوره غبار كثيف قال لى:- مين دول يا ماما ونظرت لصفحات الألبوم واستعدت الذكرى ـ هن صديقات العمر تربينا سوياً. وأعدت تصفح الألبوم.. شاهدتهن لأول مرة عندما جئن إلى بيت جدهن جارنا فى السكن.. وهن صغار أكبرهن كانت فى الرابعة عشرة من عمرها والثانية تصغرها بعام والثالثة تصغر الثانية بعامين، وكثيراً ما احتواهن منزل الجد وبحكم الحوار اختلطنا معهن وكدن لا نفترق، فتربينا معاً وكبرنا معاً حيث كانت زيارتهن للجد شبه يومية.

وفجأة توفت أمهن، وتزوج الأب وفرضت عليهن الظروف أن ينتقلن إلى منزل جدهن تاركات خلفهن ذلك القصر

المنيف، الذى كان يشبه قصور ألف ليلة وليلة، وضاع الحلم الجميل اللائى كن يعشن فيه وضاع منهن كل شىء.

وعلى الرغم من فراق الأب وقسوة الظروف إلا أنهن عشن الحقيقة بكل ما فيها من حرمان وذل ولم نرحمهن نحن بل صرنا نحن والزمن عليهن.

عشن الواقع الأليم ولم يحقدن على أحد. كان جدهن من وقت لآخر يساعد أبى دون علمهن، وحتى وإن بلغ إداركهن حقيقة احتياجنا لجدهن فلا نجد أى أثر ولا أية علامة تظهر أدنى تصرف منهن، تفصح عن تعالى أومعايرة بل على العكس كنا نشعر بأن احتياجهن إلينا كان أكثر وفضلنا عليهن أوفر.

وبشعور لا ندرى حقيقته كنا نعاملهن بجفاء وكراهية وحسد، بل إننا كنا ورغم كل ذلك لم نشعر بأى رد فعل سيئ كأثر لمعاملتنا السيئة لهن ولم يعلق بذهنهن إلا أننا أصحاب فضل عليهن، وعاملننا بالحب والتواضع - ولكم أوغرنا صدر والدنا عليهن بأن قلن له بأنهن يغلقن الباب فى وجوهنا عندما ندخل شقة جدهن، رغم فرحهن الشديد

عندما نذهب هناك، مما دعى والدنا أن يعاملهن بقسوة، بل ويحضر معه من يسهرون معه عند جدهن الذى لا يرفض لوالدنا طلباً، ولكم ضايقهن وهن ذلك يحببنه كوالدهن، ولكم قطع النور عليهن حتى يضايقهن، واستجابت أمنا للانتقام منهن فتعاركت معهن ليل نهار، ومع ذلك كن يتحملن ويكنن لنا كل الحب والاحترام.

إلى أن توفى الجد الذى كان يمدنا بالعديد من اللعب والحلوى ويساعد والدنا على ظروف المعيشة، وناصبنهن العداء وعاملناهن بقسوة، وصبرن على جورنا، ولم يبادلننا نفس العداء، بل زاد حبهن لنا أكثر فأكثر.

وتحسنت حالتنا المادية وانتعشت، وظننت أننا بذلك يتغير حالنا لنكون فى وضع أحسن منهن، إلا أنهن وبتلقائية من تربى على القيم منذ نعومة أظافره أظهرن من التعفف وعزة النفس ما يحملك على الظن أنهن يملكن الدنيا وما فيها، وعلت سحنتهن مسحة من الشموخ والعظمة ولكن فى تواضع بسيط و تلقائى، ولم تنقطع زيارتهن لنا.

وبدأت مشاعر الحقد والحسد تنحسر بعيداً عنا تجاههن، وقفلت الألبوم وأخذته من يد طفلى وحفظته فى مكان أمين بعد أن أزلت ما كان عليه من غبار كثيف.

السراب والبحر

اقتحمت عليَّ مكتبى بالجريدة.. وهى تصرخ.

ما ادخرته يا سيدتى سراب.. كلا ما ادخرته كان إلى البحر.. ابتلع البحر كل مدخراتى.. أبوقير كلها تعرف حكايتى.

أيقنت أن هذه السيدة قد تعرضت لكارثة.. ربما فقدت زورق صيدها فى البحر وعلى ظهره أولادها فلذة كبدها قلت لها:

هدئى من روعك يا سيدتى.. كل شىء بيد الله سبحانه وتعالى ونحن لا نملك لأنفسنا شيئًا وإن شاء ربنا يعوضك خيرًا.

المصاب فادح.. هذا طبع البحر.. غادر وكثيرًا ما يخطف منا الأشياء الثمينة..

ولم ترد علىَّ فقط كانت تنظر إلى لا شىء وفضلت أن أتركها قليلا وطلبت لها كوبا من الليمون.. شربته.. بدأ انفعالها يهدأ.. ثم ما لبثت أن استعادت رباطة جأشها وبدأت تحكى:

توفى والدهم منذ طفولتهم.. كافحت من أجلهم.. تغربت.. ذقت المرارة فى الغربة.. وتجرعت عذاب السنين.. عذاب امرأة نسيت نفسها وهى فى سن الشباب.. عشت لهم ومن أجلهم عرض علىَّ الزواج ولكنى فضلت احتضان أولادى.. وقلت للجميع النظرة فى وجه ابنى أو بنتى بالدنيا كلها.. نزلت ساحة الكفاح وليس معى سلاح .. غير إرادة أم تريد أن تربى أولادها أحسن تربية .

لم أتعلم.. تهت فى الدنيا.. كافحت من أجلهم واستطعت أن أربيهم أحسن تربية علمتهم.. وبدا انفعالى بحكاية السيدة يزداد.. ودار بعقلى كلامها «واستطعت أن أربيهم أحسن تربية» علمتهم.. كيف يا سيدتى.. وهم صيادون على قارب فى عرض البحر.. لماذا دفعتيهم إلى الخطر.. قد يكون المحافظة على المركب التى تركها لهم الأب.. قد

يكون.. قد يكون.. تقصد علمتهم فى مدرسة الحياة.. لم أحاول قطع حديثها..

عملت مربية من أجلهم وادخرت لتعليمهم وتكبيرهم ونسيت نفسى.. ونسيت عمرى كله.. ولم أعرف سوى أننى أم وأب لهم.. وكبر الأولاد.. وتزوجوا وأصبح لهم أولاد. وجدتها فرصة.. وقطعت عليها حديثها.. وقلت لها: الحمد لله أن لهم أولادًا.. فلن ينقطع الأمل.. وسيستمر النسل والأسرة ويحل الولد مكان أبيه.

ونظرت إلىَّ وكأننى لم أعقب.. ثم استمرت:

واليوم بعد أن أصبحت سيدة مسنة وفى حاجة إلى الرعاية والحماية - يتركوننى هكذا وبمفردى أعانى الوحدة والضياع فقلت لها يا سيدتى هذه إرادة الله واصبرى.. الصابرون فى خير.. ولم تسمع.. واستطردت لتعيد على سمعى ما سبق أن قالته لتؤكده..

ما ادخرته يا سيدتى سراب.. كل ما تصورته عن فقد زورق صيدها فى البحر حيث إن كل كلامها يؤكد ذلك.. واستمرت.

تخلى عنى فلذة كبدى ونسى الجميع أن لهم أمًا.. ولا أملك مصدرًا للعيش.. لم يكلف أحدهم نفسه بالسؤال عنى.. وعندها واصلت البكاء.. فلم أجد فرقًا.. كان موتهم فى البحر أرحم لها وصدقت عبارتها الأولى.. كل ما ادخرته يا سيدتى سراب . كل ما ادخرته كان إلى البحر.. ابتلع البحر كل مدخراتى أبوقير كلها تعرف حكايتى.

صفقة القلب

فى كل مرة نلتقى فيها أجد صورته تلمع أمامى. لا أنكر أننى شعرت بسعادة غامرة لفكرة زواجنا المرتقب. بدأت بالفعل فى تجهيز نفسى وإعداد متطلبات عشنا ولوازم حفل الزفاف ولكنه فجأة يختفى بدون سبب واضح لا أعرف لماذا فعل ذلك كلماته التى أحفظها مازالت تتردد فى أذنى سأظل طوال حياتى أحبك وإلى الأبد. أنت حبى الأول والأخير. عشقى لك بغير حدود. أنت حياتى ولا أستطيع الحياة بدونك.

عندما كنا نذهب إلى حدائق المنتزه ونجلس معًا لساعات طويلة كل من يرانا كان يقول إننا نعيش حكاية من حكايات الأساطير الغرامية حتى حدثت المفاجأة اختفاء العاشق قبل

موعد الزفاف. أبكى وأصرخ، وأعلن أنه لم يعد يهمنى أن ينتهى عمرى ولكن لا يتركنى هذا حبيبى أنا لا أبحث عن المال بل أبحث عن الحب عن سعادتى معه كأول رجل يشعرنى بأننى امرأة.

كان قادراً على إشباع رغبة الحب عندى وعاطفة الأنثى لأنهما أصبحتا المسيطرتين على كل مشاعرى كحالة خاصة لامرأة عاشقة عندما كنت بجواره أحببت كل طفل أمامى. وقررت أن أهب عمرى من أجل طفل واحد منه. ولكن المفاجأة أن يتعلق بأخرى مدعيًا أننى أصبحت غير قادرة على الالتزام بتكاليف الزواج. لم أعرف وأن الزواج عنده صفقة رابحة وأن المثل الذى كان يردد مراراً على مسامعى لا تصدق قلوب النساء، ولكن العكس كان هوالصحيح فقلوب الرجال وقلبه على الأخص أكبر الكذابين.

الآن أفيق بعدما هجرنى إلى أحضان ابنة رئيسه فى العمل، تلك الفتاة اللعوب والأكثر قدرة على تحقيق صفقة زواج ناجحة له يربح فيها المال والجمال ويتركنى أنا حبيبته للوحدة وزحف سنوات الشيخوخة.

عليَّ أن أنتقم. أن أجعله يخسر صفقة عمره.

وبينما أنا غارقة فى خططى الخيالية لإفشال صفقة زواجه، أسمع طرقًا على الباب، أفيق من شرودى أفتح الباب فأجد من يرتمى فى أحضانى ويقول: اكتشفت أخيراً أن صفقتك هى الأربح، لأن صفقة القلب هى أجمل الصفقات.

اختفاء مريض

وجدت نفسى متعبة وقررت أن أرتاح ولو للحظات أغفو فيها حتى أسترد بعض أجزاء نفسى المنهكة من يوم عمل مضنٍ حيث قضيت الليلة كلها فى عمل لا يتوقف حتى الصباح.

ولم تمهلنى ظروفى المشحونة دائمًا فإن ما عرف عنى فى عملى يدفعنى إلى التضحية ببذل أقصى ما أستطيع لأحافظ على السمعة الطيبة، التى جعلت منى أكفأ طبيبة فى المستشفى خاصة وأن فترة خدمتى مازالت قصيرة ولكن سمعتى الطيبة وما تمثله من شهادة.على كفاءتى المهنية جعل اسمى يتردد على لسان الجميع طبيبة ماهرة يشهد لها أساتذتها وزملاؤها والمرضى بالتفوق والنبوغ.

«الحقينا يا دكتورة المريض بحالة الطوارئ يطلبك بالاسم يقول «سأموت إن لم تحضر دكتورة «إنجى» ولم تعرف من الذى أبلغه باسمك».

وبسرعة كشفت على الرجل إنه يعانى من ذبحة.. أجريت له الإسعافات اللازمة وأدخلته العناية المركزة لكن حالته ساءت أكثر وزادت فترة وجودى إلى جواره .. هذا الرجل المسن.. وفى خالة حرجة وبعد أن استقرت حالته نتيجة مجهود مضنٍ منها ومن طقم التمريض تنفست الدكتورة «إنجى» الصعداء وهى تردد بصوت هامس «الحمد.. لله.. كتب للرجل عمر جديد» وأثناء خروجها من باب العناية المركزة شدها منظر فتاة تنظر إليها مشدوهة ـ وتقول بعدما قرأت اسمها على صدرها.

دكتورة إنجى ألا يوجد أمل لحالة والدى- كانت الدموع تترقرق فى مقلتيها.

إنها فتاة صغيرة لا تتعدى الثامنة عشرة من عمرها ..

اطمئنى الحالة مستقرة . وسوف يتحسن. المريض فى حاجة إلى الراحة وخرجت الفتاة لا تلوى على شىء والدموع لا تجف فى مقلتيها.

علم أبناء الرجل بحالة والدهم الحرجة ولعب الشيطان بهم.. والدهم يمتلك ثروة كبيرة فهو رجل أعمال وصاحب شركات عديدة «لابد وأن يوقع لهم على توكيل بالإدارة» ـ ماذا لو توفى الرجل وهم لم يعرفوا ماذا فعل بشأن الأموال.. يقولون إنه سوف يتنازل عن ثروته للجمعيات الخيرية أوقد يكون تنازل عنها فعلاً.

ووصل خبر تآمر الأخوة لأختهم الصغيرة وكان خوفها على والدها من إخوتها غير الأشقاء وهم الذين ينعمون فى خيره وهى التى لم تتلق من والدها هى أو أمها أية رعاية.

وعندما بدأت حالة الرجل فى التحسن.. حررت له الطبيبة توصية بالخروج من العناية المركزة، فى ردهات المستشفى اختفى الرجل فلا هو فى العناية المركزة. ولا هو فى حجرته الخاصة ـ ولم تجد الدكتورة إنجى حلاً سوى إبلاغ الشرطة.

لقد كانت فى قمة انفعالها فحياة الرجل مازالت فى خطر. بدأت الشرطة عمليات البحث فى أركان المستشفى وفى غيرها من الأماكن المحتملة والكل يشاركهم بكل همة

وتحفز أبناء الرجل وقد علت وجوههم كآبة وعصبية شديدة إلا ابنة الرجل تلك الشابة الرقيقة الحزينة فقد انتحت جانبًا بالدكتورة «إنجى» وأخبرتها فى توسل أن والدها ينام الآن قرير العين فى سرير مبيت الدكتورة فى حجرتها الخاصة وأنه آمن الآن من المطاردة.

مراوغة

حدقت عينىَّ فى عينيه. للمرة الأولى أستطيع أن أصمد أمام نظراته . عيناه عسلهما صاف لكن بحرها لاحدود لقاعه. أمواجه لا تهدأ . ليس لها أمان. رفعتنى إلى أرق أحلام حياتى. شعرت أننى معه، بين يديه، وفى عينيه أميرة تعيش فى إمارتها فى قلبه.

رميت بنفسى فى لجة عينيه ورضيت بالغرق شوقاً.. رضيت أصارع الموج وأعاند الريح آملا أن أصل إلى بر الأمان ذات يوم.

ظلت عيناه تصنعان المراوغة يحمل بين شفتيه كلمات الحب وفى نظراته اللهفة وحين أقترب منه. أحدق فى عينيه أرى بحراً.

اليوم رأيته يبتسم لأخرى يهمس لها .. يناجيها.

وأنا..!

عيناه ... أراد كالعادة أن يتلاعب بالكلمات يتأرجح على حبالها.

وقفت.

حدقت فى عينيه لأرى بحراً لا أمان له بحراً من ظلمات المراوغة التى لا تنتهى.

قررت أن أنجو من الغرق.

خديعة

أمسك بأناملى ونظر إلى عمق عينى وهمس

آسف يا حبيبتى لابد أن نمتلك الشجاعة ونعترف أنها كانت نزوة.

قالها ولم ينسحب بل وقف متحدياً

مرت بى لحظتها أيام حياتى كشريط كوكبة من مشاعر شتى تساءلت شاردة النفس هل أخطأت

إنه حبى الأول حبى الذى وهبته أرق وأحلى أحاسيسى . كان أبى مشغولا بامرأته ينظر إلى نظرته إلى حمل ثقيل هو فى غنى عن حمله.

وكانت أمى مثقلة بزواجها الجديد تعيش من أجله وأن رأتنى فلا مانع من إظهار العطف بالكلمات.

لذا اكترثت مشاعرى خبّأتها فى أعماقى حتى وكلمات الغزل تنساب فى أذنى ونظرات الإعجاب تشملنى كنت أقول لمشاعرى كلا ستكونين لصاحب النصيب الذى سيمتلك كل ما لدى

حتى التقيت به وتغلغلت كلماته فى وجدانى ورأيتنى أفتح له كنزى الذى خبأته فى طيات القلب

أفتح له الكنز الذى كنت كالبخيل أنميه وأحفظه ليوم أقدمه للإنسان الذى أشعر به

ورأيتنى معه نبعاً لا ينضب وزهرًا لا يذبل وعطاءً لا يغيب

غير أننى استيقظت فجأة لأجدنى أنبض على هواء فراغ لا يحمل فى طياته إلا الحيرة والتساؤل الذاهل أيرفضنى

وحين عثرت عليه ولبست مشاعرى الثوب الأبيض احتفالاً به وزغردت عيناى وغنى فؤادى لرؤياه رأيته يقول لى ما قال.

لم تدهشنى صراحته ولا تعجبت لتقبله ولكن ما هزنى فعلا هو كيف انخدعت فيه كيف اخترت من دون الرجال هذا الرجل وهل تكذب المشاعر على صاحبها؟

ظللت ناظرة إليه أتأمل الوجه الذى كان أحب الوجوه
إلى وحين انتهى استدرت عنه حتى الكلمة بخلت بها عليه
حتى الدمعة رأيته لا يستحقها
تركته ومضيت وسؤال يهز جدران رأسى
لماذا خدعت نفسى؟
ولم يكن هناك رد..

دائرة من نار

كنت فى غاية السعادة عندما كلفنى رئيس التحرير بأداء مهمة بعد فترة تمرين طويلة كنت أعمل خلالها بعض التحقيقات التى كانت فى نظرى أقل بكثير من طموحاتى.. وتمنيت تكليفى بعمل يناسب إمكاناتى.

حتى جاءت الفرصة أخيراً. كانت سعادتى كبيرة عندما قال لى رئيس التحرير: سوف أمنحك فرصة عمرك. إذا نجحت سينشر اسمك بالبنط العريض. وإذا فشلت فسيتأخر ظهور اسمك كثيراً.

وأخذ يشرح لى طبيعة المهمة التى تنحصر فى كشف أصحاب المقام العالى فى لهوهم وحفلاتهم الصاخبة بالصوت والصورة.

خرجت من مكتبه وكلى شوق لكشف هذه الأسرار حتى أحقق حلمى الكبير بنشر اسمى. وبدأت مراجعة الأسماء التى حصلت عليها من رئيس التحرير وجدت بين الأسماء اسمًا مرموقًا فى عالم البيزنيس. صاحبة الاسم دائماً أخبارها وصورها تملأ الصحف والمجلات. وبدأت اللحظة بالاقتراب منها وسعيت حتى عرفت اسم النادى الذى تتردد عليه فبدأت أنا الأخرى أذهب إلى النادى. واقتربت منها أكثر من خلال الجمنيازيوم حيث تمارس رياضة الأيروبك فبدأت أيضاً أمارسها وكانت فرصتى وبدأنا الحديث عن الريجيم والرشاقة وأنواع الأكلات وهكذا بدأت صداقة امتدت عبر التليفونات لدرجة أننا أصبحنا دائماً معاً.

وبدأت تدعونى لحفلاتها وعندما أخبرتها أننى أريد دخول عالم البيزنيس قالت لى: هذا ممكن لكن يلزمك أولاً رأس مال وإقامة علاقات اجتماعية تساعد على تقديمك لعالم المال والأعمال.

قلت لها إن السيولة هى العقبة أمامى لأن ممتلكاتى مجمدة فى صورة عقارات وأراضٍ وطبعاً كانت كذبة بدأتها

لتطمئن أنى أنتمى لطبقة الأثرياء كانت ضحكتها مجلجلة عندما قالت: إن السيولة ممكنة بدون حاجة إلى أى عقارات أوممتلكات.

وإننى أستطيع الحصول عليها لو اتبعت تعليماتها بدقة وبدون نقاش بالطبع وافقت.

قالت: إن هذا الأمر سيتطلب منك بعضًا من (تفتيح المخ).

قلت: لى مدى.

قالت: حتى تصلى لنهاية الدائرة.

كان التعبير جديداً.. ولكن كان لابد أن أعلن عن موافقتى. فهذه فرصة ذهبية لكشف هذا العالم الخفى الذى طلب منى رئيس التحرير أن أكشفه وعندما حاولت أن أعرف حدود تلك الدائرة ضحكت وقالت: اسمعى الكلام وبس فى اليوم الموعود كنت فى قمة الشياكة ولكنها قالت خلى بالك الدائرة لا يمكن اقتحامها إلا مع زوجك وأسقط فى يدى ماذا أفعل وأنا غير متزوجة

قالت لى: ولا يهمك شوفى لك واحد يقوم بدور الزوج: على الأقل لن يعارض ما يحدث وخلى بالك لازم يكون لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم ويوافق على قضاء ليلة ممتعة ستكون ليلة العمر.

مرة أخرى أسألها فتقول بلاش أسئلة كثير لكن حاريحك ومالت على وهمست فى أذنى بكلمات تصببت بعدها عرقاً ولكن وافقت كنت أحلم بالخبطة الصحفية التى طلبها رئيس التحرير وأن أشاهد اسمى منشورًا فى الجريدة وستجعلنى أحصل على الشهرة من أوسع أبوابها ويشار لى أننى سلطت الضوء على هذه الزمرة من مصاصى دماء الغلابة فى نفس الوقت كانت فرصتى ليكون زميلى المصور هوالزوج المزعوم ورحنا نتفق على طريقة الحصول على على هذا التحقيق الذى جعل زميلى فى شوق الآخر بعد أن عرف بعض التفاصيل التى عرفتها أنا من قبل من صديقتى والتى قالت إنها ستقول لى باقى التفاصيل أثناء الحفل!!

ثم جاءت ليلة التنفيذ.. أو خطة الدائرة النارية وهى بالفعل كما أوحت بدايتها ولوأننى لم أعرف نهايتها...

بدأ الاحتفال بموسيقى صاخبة وبوفيه مفتوح به كل أصناف الطعام والشراب، وكانت خلفية المكان جدران من الزجاج تسبح فيها حسناوات فاتنات عاريات بدأت الموسيقى تخفت والأنوار تهدأ بينما الرجال على موائدهم وهم ما زالوا بملابسهم الرسمية وبدءوا يلتفون حول المائدة.

وبدأت أتصفح ملامحهم.. إنهم أصحاب وجوه معروفة.. فهذا فلان.. أشهر تاجر مخدرات..

وهذا فلان صاحب قضية قروض البنوك.. وهذا فلان قواد صاحب قضية مشهورة..

وبدأت السيدات فى الدوران حول المائدة.. هنا وجدت صديقتى تهمس فى أذنى بالتفاصيل.. وصعقت.. وأنا فى ذهول لا أصدق ما أسمعه كيف تطلب منى أن أدور حول الدائرة النارية مع الباقيات بدأت أرتجف.. بينما الرجال جالسون فى أماكنهم والمائدة تدور حولهم دوار أصابنى بالذعر والذهول .. فى هذه الأثناء انتابنى هاتف أن أتخلص من جحيم الدائرة المراد منى المشاركة فيه وأن حدودها ... و...

قلت لها بصراحة البنطلون ضيق لذلك لم أرتد..

ضحكت وقالت: بس ده الشريط اللى عليه...

انصرفت...

قلت لها: آه افتكرت... عندى فى السيارة طقم كامل

قالت: ومستنيه أيه... طيرى.

وفعلاً لم أكذب خبرًا.. طرت على السيارة وارتميت على عجلة القيادة لأنطلق بأقصى سرعة.

انفلات وخشوع

حزمة من الأسئلة وعلامات الاستفهام تحوطنى كلما وقعت عيناى عليها ـ وجميعها تفقد لسانى وتحبس كلماتى ـ وتفتح أبواب التعجب والدهشة ـ ما لون هذه المرأة ؟ وما هذا الغموض الذى يكتنفها ؟ من هى ؟

العجيب أننى كلما التقيت بها أجد نفسى أمام ملاك هابط من السماء ـ تؤدى الصلاة فى خشوع وكأنها صلاة مودع ـ تستدل بآيات الله فى حواراتها ـ تملك وجهًا نورانيًا ـ واثق القسمات ـ وفى عينها جمال نادر وعمق غير محدود ـ أما مشيتها ـ

أخذتنى الدهشة حين أخبرتنى أنها فى الأربعين من عمرها ـ وأطاحت بوقارى كل علامات التعجب والاستفهام حين رأيتها ترقص وتغنى بانفلات فتاة فى العشرين.

قوة غامضة تشدنى إلى هذه المرأة ـ تساءلت ترى ما الذى يجذبنى إليها؟ ـ جمالها ربما كونها عراقية ـ جائز ـ المظهر الدينى المتمكن فى صلاتها وحديثها ـ ممكن انفلاتها وجنونها ورشاقة خطوها الراقص ـ يجوز.

أعترف أنها قد آثارت فى نفسى شجونًا بغير حدود ـ قصور ألف ليلة وليلة ـ شهر زاد وشهريار ـ تخيلت نفسى أحيا معها فى قصر منيف على تخوم بغداد ـ أغلق عليها أبواب القصر المسحور ـ نجتز معاً أحلام آلاف الليالى ـ وننزع معاً كل الأجنحة التى تخفى عنا غلالات ظلال المرأة التى تماثل مدينتها خشوعاً وانفلاتًا.

الملابس الجديدة

وانتظرت بداية العام الدراسى وهى تمنى نفسها بملابسها الجديدة والحذاء والشراب والحقيبة قالت لها أمها: أنت أنهيت مرحلة الإعدادى وسوف يحضر لك أبوك الملابس الجديدة والحقيبة فقد كبرت.

ملابس أخوتك القديمة مستهلكة.. نظرت الفتاة للملابس القديمة «استعمال إخوتى لها بإسراف جعلها مستهلكة وغير صالحة».. ومنيت نفسى بملابس جديدة.. لن يكون فى مقدرة والدى إعادة استعمال لملابس إخوتى.

وانتظرت... وانتظرت.. اليوم الأخير أقبل.. المدارس باكر.. أين الملابس الجديدة ؟ الحذاء .. أو حتى الحقيبة الشراب لا شىء بالمرة.. هى تحلم بملابس جديدة... ولكنه حلم بعيد المنال.

قالت لى زوجة أبى خذى هذه ملابس أختك.. اذهبى بها على المدرسة باكر.. وتفحصتها رغم أننى أعرفها جيداً.. إنها ملابس أختى الشقيقة.. هذه الملابس خدمت سنة زيادة عن حدها.

واليوم تقول زوجة أبى «اذهبى بها إلى المدرسة باكر أيضاً».

قضت زوجة أبى على كل أحلامى فى ارتداء ملابس جديدة مثل البنات ومن اليوم أدركت أن حلمى ليس من حقى.

وجاء الصباح يحمل لها اللوعة والألم وانزوت داخل أثمالها وانتعلت الحذاء المرقع وحملت الحقيبة البالية والقميص مفكوك من تحت الإبط والزراير من كل صنف.. الحذاء تغير لونه.. الجميع ينظرون إلىَّ.. أراهم يتغامزون.. ملابسها ممزقة.. تخفى ثقوب حذائها وتشويهات القميص.. البنات ينظرن.. وخرجت من أفكارها وقررت أن تكلم والدها.. أنت تفرق بينى وبين إخوتى اشتريت لأخواتى الأخريات ملابس جديدة.. أنا وأختى فقط نرتدى القديم..

أنا وأختى بناتك يا بابا.. لماذا تحرمنا من كل شىء.. وسمعوا طرقاً على الباب وفتحت.. إحدى زميلاتها ومعها والدها يقف بجوار الباب.

- تفضل.. ودخلت زميلتها.. ناولتها لفة كبيرة.

هذه هدية بسيطة من أخت لك تحبك فأرجو أن تقبليها. وابتسمت لها وتناولتها وقبل أن تنتهى من كلامها.. وهى تقول تفضلى «كانت الفتاة قد اختفت وركبت مع والدها السيارة».

فاقد الهوية

عرفته أستاذاً فى الأكاديمية تذكرت اللقاء الأول وكان فى (الريسبشن) ويتحدث عن نفسه كثيراً ... الجاه... السلطة.. وأن الإنسان بدونهما لا يساوى شيئاً، ضحكت قلت له إن الإنسان بأخلاقه. نظر إلىَّ مستغرباً أنت إنسانة خيالية. هذا المجتمع لا يقدر إلا معاه كام واصله مين يا بنيتى إنت لسه عود أخضر.

على كل حال ممكن أحكى لك حكاية؟ كنت ضابطاً فى الجيش بمنطقة رفح وعندما كنت متجهاً إلى موقعى وجدت امرأة فى السبعين تشاور لى بطريقة الفلوستوب استغربت يظهر أن اليهود علموا العرب الفلوستوب.

فقالت لى أنت حاتورينى غزة ولا مش عايز...

فقلت لها هذا ليس طريقى وصعبت علىَّ وعند نقطة المرور كنت أبحث لها عن عربة ذاهبة إلى غزة؟

لوح لها الجندى الإسرائيلى وقال باللهجة العربية تعال نحن فى انتظارك وبالفعل بعد نقطة التفتيش حملها معه وهى تنظر ناحيتى وتضحك على أسنانها المتساقطة...

صرخة

جاءت تشكو لى وهى فى حالة من الذعر الشديد آسفة من اليوم لن أغادر بيتى لن يرانى أحد وراحت شلالاً من الدموع قلت لها اهدئى يا صديقة العمر فيما يبدو أن هذه عين حسود.

قلت هذا فصرخت فى وجهى على إيه بس يا حسرة

أنت مديرة مؤسسة قد الدنيا

ليتنى لم أكن مديرة

أنا أراعى ربى فى الخفاء أكثر من العلانية

نعم أعرف عنك هذا وأنت تبذلين جهداً غير عادى للاحتفاظ بهذا المركز وكذلك كسب حب الناس حقيقة

ولكن ونظرت لى وراحت تتحدث اليوم حدث لى وبمحض الصدفة أن طالبة جامعية مزورة كيف هذا؟!

كانت تحمل اسم مؤسستى وقد لاحظت أن مدير العلاقات العامة كان يحادثها من طرف خفى..

بعدين سمعت كلماته تخترق أذنى وأمسكت بها طلبت البطاقة فأعطت لى البطاقة المزورة تصورى ؟

وقالت فى بجاحة أن ايش عرفنى ؟

واحد عندكم أعطاها لى وراحت ترفع صوتها حتى تجمع الناس حولنا ...

وأصبح الظالم مظلومًا تصورى هذا ؟

واتصلت بالأمن لأنى مديرة المؤسسة ولكن هذا التصرف ظل عالقاً بذهنى الدنيا تغيرت ؟

ووضعت كفى على كفها

الحقيقة لابد أن تظهر مهما حاولنا إخفاءها فهدأت.

لمسات أم

منذ عدة أيام كانت أمى تقوم بأعمال المنزل فى هدوء كما عودتنا ولكن فى هذا اليوم خرجت منذ الصباح ولم تحادث أحداً، وكانت الشمس لا تظهر إلا قليلاً وكانت هذه أول مرة فى حياتنا تغادر البيت ولا تقول لى شيئاً واستغربت لذلك جداً.

هل تذهب لزيارة صديقة لها أو قريب لنا

وعند عودتها تظل واجمة لا تحادثنى وتصرخ وتخض ما يشبه الدموع ما بك يا أمى؟

لا شىء لا شىء أنا زهقانة شوية

وفى أحد الأيام خرجت قبل أن أصحو وطالت غيبتها فقررت مراقبتها حتى أبدد حالة الحيرة التى ولدت آلاف

الظنون وكنت ألاحظ ضمورها وضعفها الزائد وكانت تبتسم فى وجهى عندما أراك فى بيت العدل أطمئن يا بنيتى وأهز رأسى ولا أعرف كيف أرد عليها حتى جاء هذا اليوم.

قمت فى الصباح واستعديت لم تلاحظ أنى نمت بملابس الخروج دفعت الباب، وكان الشارع صامتاً والأشجار تتساقط أوراقها على أديم الأرض.

صوت مذياع محطة القرآن الكريم تنبعث منه آيات القرآن رخيمة رضية تشعر النفس بالاطمئنان. ظلت تسير على مهل وتعبر الشوارع حتى وصلت على مبنى فخم له واجهة من الزجاج وعندما دققت فى اللافتة الموجودة عليه وجدت الآتى

المركز العالمى للتحليلات الطبية

على الفور أدركت سر ضعفها حاولت أن أتماسك أتحرك بالدخول، ولكنها خرجت مسرعة هذه المرة ففوجئت بها فى مواجهتى تماماً أهلاً أين تذهبين

لا أدرى يا أمى ما بك يا أمى ؟

بخير يا بنيتى ثم انفجرت فى البكاء.. ساعتها أدركت أن الأمر خطير هل ستعودين؟

أنا سوف أنتظر قليلاً حتى الساعة ٠٠ و١٢

وظللت ملتصقة بها أداعبها وهى تنظر على شباك النتائج الذى ما لبث أن تحرك زجاجه وبدأ وجه الممرضة الساكن

السيدة / آمال حسن

أعطت لها التحليل الطبى اختطفته وعندما قرأت النتيجة تهلل وجهى وابتسمت سلبى يا أمى وأمسكت يدها وعبرت بها الطريق.

قطار الوهم

. أمر الحياة عجب إنها تشبه البحر وإذا سقطنا فى البحر ولم تكن تجيد السباحة سوف تغرق

فما أصعب هذه الحياة وما أشد هذا الصراع

عندما ظهر فى حياتى أصبح هوالأمل وتمنيت أن أكمل معه مشوار حياتى عندما عرفته كان ملاكاً رقيقاً متواضعاً

استغربت عندما تقدم لى ورفضت إلى حين تتحسن حالته. هنا سوف يعلن حبنا على الجميع ونتزوج

كنت أحلم بحياة هانئة وأسرة سعيدة

. ولكنه اختفى ثم ظهر كأحد الرجال المرموقين فى المجتمع ولكن الذى آلمنى أن الإشاعات تدور حوله لتعدد

علاقاته النسائية حتى كان هذا الموقف الذى أنكره مع إحدى السيدات وعرفت أنه يكذب علىَّ:

وأن زواجى به لن يجر علىَّ إلا الفشل وهكذا أنت أيتها الحياة

ولم أستسلم بدأت أكافح فى الحياة ولم ينقطع اتصالى به من بعيد وكأنه المنار وسط الأنواء فى البحر

حتى حسنت وضعى الاجتماعى تماماً وبى أمل أن أرتبط به مهما حدث وفى أحد الأيام وجدته يعبر الشارع وفى كلتا يديه ولد وبنت

وأخفيت دموعى وأنا أضغط على البنزين وانطلقت السيارة بى تخض فى ألوانها أسباب توقفى ثم السير هكذا وسط الشارع.

طى النسيان

لم أعش مثل الأطفال حقيقة كانت تؤلمنى وأنا أتحمل قسوة الأيام طفلة صغيرة لا تدرى من دنياها شيئاً.

ولا أدرى لماذا صممت على عدم الاستسلام والكفاح

حصلت على شهادة متوسطة أهلتنى أن أعمل سكرتيرة فى إحدى المدارس والتقيت به

رامى ذلك المدرس خفيض الصوت وتعلقت به وظل خياله يطاردنى فى كل مكان أذهب إليه حتى اكتشفت فى أحد الأيام ذلك الخط الذهبى «الدبلة» فى أصبعه اليمين.

قلب

لفت نظرى من أول وهلة كان جالساً بلوبى الأوتيل نظراته شاردة شد انتباهى وعندما دخلت قاعة المؤتمر الكبير الذى كان يناقش أبحاثاً فى الأمراض النفسية والعصبية، أدركت أنه طبيب وعندما وجدته يقترب منى ويحاول الحديث معى كنت فى عجلة من أمرى

استأذنت منه على ضوء موعد آخر

عندما ذهبت إليه وجدته يجلس فى قاعة فندق سميراميس بدأ يقص على حكاية والدته غادرت الحياة وهو رضيع ورباه أبوه وبعد تخرجه واجهته المشكلات أن يترك عمله ويعتنى بأبيه المسن وحكم الصراع بوضعه فى مصحة للمسنين وغرق فى أفكاره سألته فجأة.

كيف تعامل من يعانون من اضطرابات نفسية أوحالات عصبية من ظروف الحياة

ضحك.. أيه يا بنتى أنت عاملة اختبار وضحكنا مثل الأطفال؟

اسمعى يا ستى وراح يقص على حكاية أسرة من دولة الكويت فوجئوا بالخادمة الباكستانية ترفع فى وجوههم السكين وعرفت أنها تلقت خطاباً من أحد أبنائها بأن النقود ضاعت وتقاطعت معها تحت الملاحظة، وكانت تتألم وأنا أجلس معها حتى جاء أبناؤها بخبرها بوصول الشيك لهم وعادت إلى حالتها الطبيعية بعد ذلك

لحظات فاصلة بين العقل والجنون ولم تكن الحادثة الوحيدة التى هزتنى ولكن حكاية إحدى المذيعات فى إحدى القنوات وكانت نصف مشهورة، وقامت بذبح والديها وكانت المحكمة قد أحالتها إلى مستشفى الأمراض النفسية والعصبية حتى تحدد للمحكمة هل فعلت هذا وهى مدركة ومتريصة أم تحت ضغط ظروف وفى إحدى النزهات التى كنت أقوم بها معها وأدركت أنها حالة مؤقتة التى دهمتها

فى أحد الأيام، وشفيت مع الأيام، ولكن ظلت هذه الواقعة
فى لاوعيها تعذبها نظرت إليه.

خمس ثوان

كما انبهرت طوال حياتى أبحث أن يأتى يوم ويضمنا بيت واحد كل بنت تحلم بذلك وعندما جاءنا نفد وعدنا وجدت نفسى أمام رجل لا يعرف كيف يحصل على قلب امرأة لم أصدق نفسى عندما وجدتك تتهى اللقاء بيننا لم يستغرق سوى خمس ثوان، وتركتنى أعانى من الإحباط وأشعر أن هذه الرابطة قيد كان لابد أن أذهب وذهبت.

حجر

انفجر الحجر إلى ملايين الأحجار، تبدلت الأحوال، دبت الروح فى الأجساد الميتة، انفجرت براكين الغضب، استيقظ المارد فى نوعه تحرر الأسد من قيده، حلت القوة محل الضعف والعزة محل الذل الكل على قلب رجل واحد يريدون الثأر الكل يردد:

الموت للأنذال............. الموت للأنذال

الفهرس

الحب والصبر ٢١
كسر العادة ٢٩
هى هى ٣٣
نجدة المحترف ٣٧
دموع مستعصية ٤١
بقايا مهلهلة ٤٧
الألبوم ٥٧
السراب والبحر ٦١
صفقة القلب ٦٥
احتفاء مريض ٦٩
مزاوغة ٧٣

خديعة ٧٥
دائرة من نار ٧٩
انفلات وخشوع ٨٥
الملابس الجديدة ٨٧
فاقد الهوية ٩١
صرخة ٩٣
لمسات أم ٩٥
قطار الوهم ٩٩
طى النسيان ١٠١
قلب ١٠٣
خمس ثوان ١٠٧
حجر ١٠٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg



من خلال السرد القصصى المشوق، وإيقاعات الحياة اليومية العابرة تمكّنت المؤلفة من إبراز دور الأم الكبير. فالأم هى التى تدلل، ولكنه دلال لا يفسد بل يبنى النفوس.

وهى - أيضا - الأب فى قدرته على الحزم واستخدامه فى الأوقات العصيبة وفترات العمر المختلفة.

والأم هى الحنان، وهى الصديقة الحميمة التى لا تفارق على مدى الحياة.

وأخيراً فلقد استطاعت المؤلفة بأسلوب واضح ومشوق إبراز أدوار الأم الثلاثة، فهى الأب والأم والصديقة، وهذا ما نلمحه فى ثنايا هذا المؤلَّف.

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢,٥ جنيه

